على عرعر الاصبر

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الحادي عشر

عرس غريبين (تابع)

اما بدور فكانت ترى غانماً بعد ان تجرّع مرارة الأسى فتألم ، واجبر على معاشرة الغرباء فتحنّك ، وعاش في بلاط عكّا فاعتاد التبصر . فغدا وقد استبدل بصلف ابناء المشايخ تواضع الحكماء ، وبجرأة الاغرار المندفعة تؤدة ذوي الاختبار ، وبصراحة الشباب الفجّة مرونة ارباب السياسة المحنكين . فكانت تعجب به كما كان يحترمها ، وكانت تحترمه كما كان يعجب بها .

واما فرحات فكان يجاري في تجلّد بدور وغانم حتى لا يفهم تلك القوة الخفيّة ، لانه لم يكن يشعر بما يشابهها في نفسه المضطربة لدى الرزايا ، وفي قلبه الخفّاق لدى الخطوب ، على الرغم من تقدّمه بالعمر وكثرة اختباره وتنوّع تجاريبه . بل كان كلّما عاطفة لا يتمالك ذرف الدموع اذا خلا بنفسه ، فيتذكر تارة الشيخ قعدان يوصيه بالسهر على غانم ، وطوراً الامير جهجاه يتردّد صدى اوامره في آذان الجنود ، وحيناً الست سعدى تتململ ببنيتها النحيلة على الفراش الوثير . فيبكي الى ان تتقرّح جفونه ، وتحمرّ عيناه . حتى اذا رأى غانماً قادماً ، اظهر من الضعف قوة وتجلّد ، فيجيّه هذا بوجه طلق ونبرة قوية على رغم الاسى . فيكبر فرحات صبر مولاه ورباطة جأشه ويودّ لو تخلّص من براثن

الجزّار ، فيتولّى رئاسة الحزب في دير القمر ، وقيادة رجاله . وما احوجهم الى جبّار مثله !

وكثيرًا ما كان يفاتح غانمًا بهذا الشأن . فيسهل له سبل الرجوع ، ويصف امامه حال رجال الحزب وما هم عليه من التضعضع والتخاذل ، وحاجة الامير بشير اليه في تلك الايام العصيبة . فيحني غانم رأسه ويقول :

— لا يمكنني ترك عكا في الوقت الحاضر ، والجزّار لم يستلم بعد شيئاً يُذكر من اموال الميري . فوجودي هنا لازم لخدمة البلاد .

— ولكنك تخدم البلاد بوجودك فيها اكثر من خدمتك اياها باقامتك في بلاط الجزّار !

— هـذا رأيك ! وعلى فرض انه صحيح ، فهل ترى الجزّار يسمح لي بالرجوع ، وهو لم ينل من الامير سوى المواعيد ؟

وعند الوصول الى هذه النقطة كان فرحات يحني رأسه ، ويتابع في خاطره فكرةً لم يكن يجسر على ابدائها . وهي العمل على الرجوع خفيةً عن الجزّار . . .

وكانت بدور تحضر احياناً هذه المحادثات ، فتتابع في عيني فرحات نهاية الفكرة ، وتودّ لو يتابعوا غانم ايضاً ، فيهرب الثلاثة الى الوطن العزيز ، حيث يتوفّر لهم قليل من الراحة ، بين الاهل والاصدقاء . . .

* * *

مرّ اربعون يومـاً ، ومنزل غانم لا يكاد يخلو من الزائرين ؛ وكلهم يظهرون عواطفهم الخالصة ، ويعرضون مساعداتهم وخدماتهم . حتى كادوا ، بلطفهم ومؤاساتهم ، يمحون آثار الحزن ، ويخففون لوعة الغربة .

وكان الاب توما ومصطفى آغا لا يتخلّفان يوماً عن زيارة صديقهما العزيز . حتى اصبحت تلك الزيارات سبب علاقة بينهما فاتفقا في كثير من الافكار والميول ، على اختلافهما في المعتقد ، اذ رأى الاب توما في مصطفى آغا رزانة يحلّيها الظرف وتمثّلا يؤيّده الاختبار فاعتبره ، وخبر الثاني في الاول فضيلةً تزينها المحبة ، وتقوّى تقويها التضحية ، فاحترمه . وكانا كثيرًا ما يتبادلان

الآراء في مستقبل بدور وغانم ، وغايتها اسعاد الفتى والفتاة ، وكثيراً ما كانا يتفقان .

وبينما هما مع غانم مساء احد الاعياد ، وقد خلا المنزل من الزوار ، وخرجت بدور مع فرحات لزيارة الكنيسة ، التفت الاب توما الى الشاب وقال :

— ها قد مرّ زمنٌ على تلك المصائب المؤلمة ، يا بنيّ . فرحم الله من رحل عنا الى ديار الخلود ، وعزّاكم وايانا عن فقدهم . وقد تكلمت طويلاً مع مصطفى آغا بشأنك وشأن بدور ، فرأينا ان حالتكما الحاضرة غير طبيعية : انت شابٌ وهي فتاة . وكلاكما غريبان في بلاد بعيدة ، تعيشان في منزل واحد . فاصبح من الواجب ان تتحدا برباط الزواج المقدس . . .

فتنهد غانم مقاطعاً ، وقال حزيناً :

— لا تزال العبرات تجول في العيون ، يا بونا توما ! ولم ننسَ بعد موتانا الاعزاء !

— لا انكر ذلك يا بُنيّ . ولكني لا ازال اذكر كلمةً لاحد حكماء بلادنا الفرنجية معناها ان افضل ما نقدمه لموتانا من واجبات الاحترام هو ان نصنع ما كانوا يأمروننا به لو ظلوا في قيد الحياة . فلو ظلّ المرحوم جدك قعدان ، والمرحوم عمك المير جهجاه ؛ والمرحومة سعدى في قيد الحياة ، فما كانوا يأمرونك به ، وانت مع بدور في هذه الحالة ؟ أليس بأن تعجل بعقد القران ، فتعيش وبدور نفساً واحدة في جسدين ، تحملان معاً ثقل الرزايا فتجدانها خفيفة ، وتتشاطران متاعب الحياة فتلفيانها قليلة ؟

وبعد دقيقة سكوت راقب في خلالها وقع كلامه على غانم ، تابع :

— هذا ما رأيته موافقاً مع مصطفى آغا

فأمّن الآغا على كلامه واردف الكاهن .

— وعليه ، اذا لم يكن لديك مانع مهمّ لم ننتبه له ، ارى من الموافق ان نقيم العرس ، بكل ما يمكن من البساطة ، نهار الاحد القادم . أليس كذلك ؟

فرفع غانم رأسه الثقيل بالهموم ، واجال نظراً ساكناً ؛ ثم اشار بيديه

اشارة الاستسلام ، وقال :

— كما تريد يا بونا توما ! ولكن ارجو منك ان تهتمّ انت بمخاطبة بدور في هذا الشأن.

وكان موعد رجوعها مع فرحات قد حان ، فخرج الثلاثة الى صحن الدار حيث رأوها قادمة ، فاشار اليها الاب توما بواجهته ، وتحوّل مصطفى آغا وغانم يشاهدان اسواق المدينة من احدى النوافذ.

وما هي دقائق حتى دعاهما فرحات ، فدخلا الردهة ودخل معهما . فقال الكاهن:

— لقد اتفقنا على ان تزف ابنتنا بدور الى ابننا غانم نهار الأحد القادم ، في البيت ، بحضور مصطفى آغا والسيدة امرأته ، ان لم يكن مانع في ذلك.

ثم التفت الى الآغا فهزّ هذا رأسه علامة النفي . فتابع :

— وانت يا فرحات تقوم مقام الاشبين.

* * *

في صحن الدار ، على طاولة بسيطة ، نصب فرحات شمعتين عليتين عقد عليهما باقتين من الزهور بشريطة لم ترضها بدور ألّا سوداء . ثم سار يدعو الاب توما ، فجاء مع خادم الكنيسة . فاستقبله العروسان ومصطفى آغا وامرأته.

ولم يلبث ان باشر حفلة الاكليل بصوت منخفض ، فجمع بين يدَي العروسين ، تالياً الصلاة المعتادة ، متبعها بالنصائح والوصايا الصالحة . ثم هنأهما وتمنى لهما الحياة الطويلة يصرفانها بالسعادة والهناء.

وبعد ذلك تقدم مصطفى آغا فاعاد التمنيات ذاتها بلسانه ولسان امرأته ، ودعا الجميع الى بيته . فاعتذر غانم اولًا ، ولكن الاب توما قال :

— لا بأس في ذلك !

ثم شكر للآغا عاطفته اللطيفة ، وسار فتبعه الباقون.

كانت الوليمة غايةً في البساطة وحسن الذوق . وقد خرق الآغا عادة الحرم

وسمح لامرأته بالجلوس ، فجلست الى جنب العروس تؤاكلها ، وتؤانسها بلطفها المعهود .

* * *

قضى غانم السنة الاولى من زواجه في طمأنينة وغبطة يحسده عليهما كل من كان في حالته بعيداً عن بلاده ، مجرّداً من اهله ، غريباً بين قوم لا يفهمهم ولا يفهمونه . على انه لم يكن ليبالي بسوى عائلته الجديدة ، منصرفاً جهده عن التدخلات السياسية ، مُعرضاً ما استطاع عن ديوان الجزّار ، جاهلاً جميع الاخبار الّا ما كان يأتيه به فرحات مرةً كل خمسة عشر يوماً ، من حوادث الجبل ، وحالة الامير بشير وموقفه من الاحزاب اللبنانية عامّة ومن الجزّار خاصّة . وكلها كانت اخباراً سارّة بالاجمال تبعث في غانم الأمل بالرجوع لمشاهدة اميره ، والانخراط في جيشه .

وكان ممّا اخبره به فرحات ، في اوائل سنة ١٧٩٧ ، ان الامير بشير برّ بقسمه في ما خصّ الانتقام للأمير جهجاه من النكدية . فانه اتفق مع المشايخ الجنبلاطية والعمادية على التخلّص من آل ابي نكد . وما لبث ان استدعى الى دير القمر اولاد الشيخ كليب الخمسة وهم بشير ، وواكد ، وسيد احمد ، وقاسم ، ومراد . فدخلوا مجلسه وفيه جمهور من الجنبلاطيين والعماديين ، فاجلس كل شيخ نكدي بين اثنين من اعوانه . وبدأ يوبّخهم على سوء صنيعهم حتى اذا احتدم غيظه ، قام غاضباً وخرج من القاعة مغلقاً الباب . فما كان من مشايخه الّا ان انقضوا كل واحد على جاره مغمداً خنجره في بطنه . ثم جرّوهم فرموهم في بئر هناك دُعيت من ثمّ « بير النكدية » . ولكن الامير لم يكتفِ بتلك المجزرة ، فارسل بعض رجاله الى اعبيه ليقبضوا فيها على اولاد الشيخ بشير ابي نكد ، وهم اربعة : علي ، وجهجاه ، وسعد الدين ، وكليب . ففرّوا منها الى وادي التاعة واختبأوا هناك مدة ، حتى اكتشف مقرّهم اعوان الامير فساقوهم اليه . وبعد ان عذّبهم زمناً في سجنه ، ارسل اليهم المشايخ العمادية فقتلوهم جميعاً . وكان البعض من ابنائهم الصغار هربوا الى دمشق برفقة الشيخ سلمان ، فامر الامير بضبط املاكهم كلها ، فأخذ له منها جزءاً واعطى الباقي لمن

ساعده على قتلهم من المشايخ.

لم يكن هذا الخبر ليسر غانماً لما كان في خُلقه من الرأفة الطبيعية والترفع عن القسوة والشراسة . ولكنه لم يكن ليسوءه كثيراً لما كان في قلبه من حرقة على الامير جهجاه ، ولما كان في عقليته من تأثير عادات زمنه بوجوب المعاقبة الصارمة وقمع الشر بالشر ، حتى انه كان على الرغم من اشمئزازه الظاهر لتلك الفظائع ، يشعر بما لم يكن يجسر على اظهاره من الارتياح للأخذ بثأر الامير جهجاه ، ولتطهير البلاد من بعض الخونة المفسدين.

امّا علاقات الامير بالجزّار فكانت على غاية ما يُرام . اذ كان الامير لا يترك فرصةً الّا اغتنمها لاظهار تعلقه بمولى عكا ، وامانته في تنفيذ ارادته ، وخصوصاً لاظهار استعداده لدفع اموال « الميري » المتراكمة . الّا ان هذا الاستعداد الطيّب لم يكن يتجاوز محيط الكلام الّا نادراً ، حتى كان الجزار كثيراً ما يغتاظ من تلك المعاملة ، فيستدعي غانماً ويخاطبه بلهجة تنمّ عن استيائه من تلك الحالة ورغبته في تقصير زمن المماطلة والتسويف . فيجتهد غانم في تخفيف غضبه تارة بتصوير حالة الجبل في اشنع مظاهرها من حيث المحل او تشويش الامن ، وطوراً باغداق المواعيد الخلّابة المتعلّق وفاؤها بانتهاء زمن المواسم المختلفة . ثمّ يكتب الى الامير بشير ملحّاً عليه بارسال شيء من المال ، ويرجع الى بيته مسروراً من جهاده في سبيل اميره ، فيتناسى كل شيء اذ يدخل حجرته فيحيي امرأته ، ويداعب صغيريه . وكانا توأمين ذكراً وانثى منّ الله بهما على تلك العائلة الغريبة ، فخلّصاها من الوحشة والضجر اذ اصبحا عالماً كاملاً في نظر والديهما اللذين كانا يصرفان الساعات ، مع فرحات او مصطفى آغا او امرأته ، بالتأمل في قسمات وجه قعدان — وهو اسم الطفل — او بتعديد محاسن سعدى — وهو اسم الطفلة . وكثيراً ما كان ينتصر الاب للطفلة فيفضلها على اخيها ، فتغتاظ بدور وتبدأ بسرد محاسن قعدان . ويمضي غانم في تفضيله مؤيداً رأيه بشهادة امرأة مصطفى آغا ، فتقابله بدور مستعينة برأي فرحات . حتى اذا احتدم الجدال التجئا الى الحكم يفصل بينهما ، ولم يكن سوى مصطفى آغا ، فقدّما اليه الصغيرين وادلى كل فريق بحججه . فكان الآغا

يقهقه عالياً ويحكم بالمساواة. ثم يقتل الطفلين الصغيرين ؛ ويقهقه ثانية ضاحكاً من الطفلين الكبيرين .

* * *

على مثل هذه الحال كان يقضي غانم قسماً وافراً من ايامه ، حتى اذا كان المساء ونام الصغيران ، جلس الى مصطفى آغا يلاعبه بالنرد ، او يسأله عن آخر اخبار الديوان ، بينما كانت بدور تحادث امرأة الآغا منصرفة في الوقت نفسه الى فتل مغزلها ، او ترقيع بعض الثياب . امّا ليلة وصول فرحات فكان يجلس الجميع صامتين مستمعين لسماع ما جمعه من الاخبار اللبنانية ، وما سمعه من الاشاعات عن ابني الامير يوسف ورجال الحزب المعاكس ، وما صادفه في الجبال والاودية التي تفصل عكا عن دير القمر . فيروي فرحات امامهم ما توافق روايته من الاحاديث المختلفة ، ويحتفظ بالاخبار المهمة يسرّها الى غانم على حين خلوة منه .

وفي ليلة من خريف سنة ١٧٩٧ مكفهرة الافق ، ثقيلة الهواء ، هبت فيها عاصفة شديدة جيّشت الغيوم السوداء من البحر الى الجبال المقابلة ، ولم تلبث ان لفحتها الريح الباردة فتساقطت برداً كبيراً تحوّل الى مطر مدرار دام نحو الساعة ، فجرت السيول جارفةً كل آثار الصيف المتجمعة في الازقّة والاسواق ؛ وفزع الناس الى بيوتهم يتقون الفيضان متسترين من تلك البروق المتكسرة الخاطفة الابصار التي كانت تعقبها الرعود المتتالية القاصفة بسرعة غريبة تدلّ على اشتداد العاصفة وعلى قرب موقع الصواعق ؛ في تلك الليلة التي برد فيها الهواء فجأة بعد حرّ الصيف ، خاف مصطفى آغا ان يهيج العصبي في مفاصله ، فأوى باكراً الى فراشه ، تاركاً غانماً وامرأته نحو الساعة الثانية بعد الغروب . امّا هذان فسهرا الى الثالثة . ثم قامت بدور ، ترضع ولديها فركعت الى جنب السرير المزدوج . وقام غانم ليرى هل سكنت العاصفة . فما كاد يفتح النافذة المطلة على البحر حتى نشب بارق ساطع تلته قصفة هائلة بدأت مفردة ثم جعلت تتقطع وتضعف شيئاً فشيئاً الى ان تلاشى صداها في طيّات الغمام . فانتفض الطفلان لشدة الصوت ، ورسمت بدور على وجهها اشارة الصليب ، وتمتمت:

ـــ الله يساعد المسافرين في هذه الليلة ! يا ربّي خلّص فرحات !

فقال غانم :

ـــ ليس الليلة موعد وصوله ، فلا تخافي ! وفضلاً عن ذلك فان العاصفة اشدّ وقعها في البحر ، اما في البرّ فلا تكاد تتجاوز حدود المدينة.

ثم اقفل النافذة ، واتجه الى الباب فاحكم قفله . وانتظر ريثما انتهت بدور من ارضاع الطفلين ، فاطفأ النور وتحوّل الى فراشه.

وما كاد يلمّ النوم بعينيه حتى قرع الباب قرعاً شديداً متتالياً. فاذا ببدور تفيق صائحة.

ـــ فرحات ! فرحات !

وتسرع الى المسرجة فتنيرها ، بينما كان غانم يفتح الباب ويستقبل من ذكرته ، وعلى وجهه علائم الاستغراب ، لتلك السرعة ، وفي ذهنه افكار سوداء تنذر بوقوع خطر مفاجئ.

وما كادت انوار المسرجة تنعكس على وجه فرحات حتى ذُعرت بدور لشحوبه ، واوجس غانم خوفاً فصوّب اليه نظراً مستفهماً . فانطرح فرحات على الارض بعد ان اقفل الباب ، وقال :

ـــ لا تخافا ! ان بعد المشقّة ، وشدّة العاصفة ، وسرعة السير اتعبتني ، وليس في ما احمله شيء من الشرّ.

ثم فكّ ازرار صدرته وناول غانماً تحريراً ، وانصرف ناحية بدور تضرم له النار وتعطيه ثياباً كي يستبدلها بثيابه المبلّلة.

اما غانم ففكّ الخاتم الاميري عن الكتاب وقرأ :

« حضرة عزيزنا الشيخ غانم بو غانم حفظك الله.

« معلومنا انك وارث لكل صفات الرجولية والاخلاص للحزب التي امتاز بها اهلك الكرام لاسيما شيخنا ومدبّرنا الكبير المرحوم الشيخ قعدان ، وعزيزنا الفقيد الغالي المرحوم الامير جهجاه . فلهذا السبب نخبرك ان الحزب بحاجة الى فطنتك ودرايتك في هذا الوقت . وذلك كون اعدائنا المعروفين ابني الامير يوسف وكاخيتهم جرجس باز وبعض رجالهم بعد ان هربوا ملتجئين الى دمشق

حيث انعم عليهم الوالي عبدالله باشا واقامهم في حماه وعيّن لهم الميرة سمعنا انه جرى مخابرات بينهم وبين الجزّار وانه كتب لهم ان يحضروا اليه الى عكا آمنين . وفي علمك كفاية عمّا يمكن ان تكون نتيجة هذه المخابرات . فالمطلوب منك يا عزيزنا ان تختبر الحالة في عكّا وتعرف نوايا الجزّار وتعده عن لساننا اذا لزم الأمر بالمواعيد الكثيرة وواصلك صحبة فرحات حمل من المال امكننا جمعه في هذه المدة فسلمه اياه وقل له يأتي الباقي في اقرب وقت . دبّر الامور كما ترى الموافق وجاوبنا حالًا مع الرسول ذاته وفي فهمك كفاية من وجوب كتم السرّ ووفقك الله .

عن دير القمر في ١٢ ايلول سنة ١٧٩٧

الامير بشير قاسم عمر

الشهابي »

ولم يطو الكتاب حتى رجع فرحات فبلغه سلام كاتب الكتاب ، وهو معلمه القديم نقولا الترك . ثم جلس يتناول عشاءه ، وكانت بدور اسرعت باعداده من حواضر البيت ، ويروي لهم ، بين اللقمة واللقمة ، كل ما سمعه من الاخبار والاشاعات في طريقه . وكان غانم قد اعطى التحرير الى بدور فقرأته بسرعة كي لا يفوتها شيء من اخبار فرحات ، وردّته خائفة من ان يكون ما فيه صحيحاً ، ومن تغيّر مفاجئ قد يكون طرأ على عقل الجزّار .

* * *

ما ارتفعت شمس اليوم التالي حتى كان غانم يستأذن على الجزّار ووراءه فرحات يحمل كيسين ثقيلين . وكان المولى منفردًا في كشكه الخاص يدخن ماسورته ، وحاييم اليهودي ، امين صندوقه ، يسرد عليه مبالغ النفقات وما يقابلها من الواردات . والجزّار يقول له :

(لها بقية)